الباب الثامن

في ذكر ما سمعنا منه ﷺ

في خلق أبينا آدم وتدريج أمره

على نبينا وﷺ

وبيان أن خليقة بني آدم هي أفضل الخلائق

وأن شكل صورتهم هو أفضل الأشكال

فسمعته ﷺ **يقول:** إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام جمع تربته في عشرة أيام، وتركها في الماء عشرين يومًا، وصوره في أربعين يومًا، وتركه عشرين يومًا بعد التصوير، حتى انتقل من الطينية إلى الجسمية، فمجموع ذلك ثلاثة أشهر، وهي رجب وشعبان ورمضان. ثم رفعه إلى الجنة، ونفخ فيه من روحه وهو في الجنة، وخلقت منه حواء وهو في الجنة، فكان خلقها في الجنة، ولما تم لها شهران في الجنة ركبت فيها الشهوة فواقعها آدم، فحملت، ووضعت حملها بعد النزول إلى الأرض لثلاثة أشهر من حملها [ومدة مكثها في الجنة تسعة أشهر][1] ثم حملت في الأرض بعد ذلك فوضعت حملها لتسعة أشهر، فاستمر ذلك إلى اليوم.

فقلت: وما التربة التي خلق منها آدم؟

فقال ﷺ: تربة جميع المعادن: معدن الذهب، ومعدن الفضة، ومعدن النحاس، وسائر المعادن، فأخذت تربته من كل معدن، وجمع ذلك في محل، وخلق منه آدم.

فقلت: ومن الذي جمع ذلك؟

فقال ﷺ: الملائكة ومن شاء الله، وأكثرهم حملاً سيدنا جبريل عليه السلام لأن الله وعده أن مخلوقًا من التراب لا أعز عند الله منه يكون جبريل عشيرًا له ومرافقًا معه، وينال منه بركة عظيمة، وهو سيد الوجود ﷺ فكان جبريل يجمع التراب وهو يظن أنه لذلك المخلوق الذي وعد به.

---

(١) سقطت من (أ).

فقلت: وما مقدار ذلك التراب؟

فقال ﷺ: مقدار ما يعمر من الأرض مقدار ميل أو أقل منه، يعني أنهم جمعوا ترابًا كثيرًا مقدار مساحة ما سبق.

فقلت: فلم احتاجوا في جمعه إلى عشرة أيام، والله تعالى قادر على جمعه في لحظة؟

فقال ﷺ: والله تعالى قادر على خلق السماوات والأرضين في لحظة، فلم جعل خلقهن في ستة أيام؟ وقادر على خلق آدم من غير تراب، فلم جعله من تراب؟ ولكنه تعالى يخلق بعض الأشياء ويرتب خلقها في أيام ويجريه شيئًا فشيئًا؛ لأنه يحصل من ذلك توحيد عظيم للملأ الأعلى؛ لأن في تنقل ذلك الحادث من طور إلى طور، ومن حالة إلى حالة، وظهور أمره شيئًا فشيئًا، ما لا يكيف من [جمع همم][1] الملأ الأعلى، إلى الالتفاتات إليه بالتعجب في أمر الله في ذلك الحادث، والتفكر في شأنه، وكيف يخلقه، وماذا يكون منه، وإلى أي شيء يصير، فهم يرتقبون الحالة التي يخرج عليها، فإذا حصلت حصل لهم من التوحيد ما لا يكيف ولا يحصى.

وفي زمن الارتقاب يحصل لهم من العلم بالله تعالى والاطلاع على باهر قدرته وسريانها في المقدورات شيء عظيم، فلا يفوتهم شيء من أسرارها في ذلك المخلوق، فيحصل لهم فيه التفهيم التام. فالتدريج لهذه الحكمة، ولحكمة أخرى وهي أنه بهذا التدريج، وانتظار خروج الحادث، والتشوق إليه، توجد مخلوقات أُخر مثل هذا الحادث أو أعظم، فلله تعالى في كل شيء أسرار وحكم.

فقلت: وما هذا الماء الذي جعلت فيه تربته وتركت فيه عشرين يومًا؟

فقال ﷺ: ماء خاص فيه نفع لذات آدم وذريته، وإنما كان فيه ذلك النفع؛ لأنه ماء الأرض التي ينسب إليها على الحقيقة، فيشاكل الذات المذكورة ويناسبها.

فقلت: وهل هو من أصل الأرض، أم كيف الحال فيه؟

فقال ﷺ: ليس هو من أصل الأرض، ولكن حصل له مرور على غالب أجزاء الأرض، وذلك أن المياه المارة على الأرض منها ما يمر على بعضها فلا يأخذ إلا سر ذلك

---

(١) سقطت من (ب): جمعهم إلى.

البعض، ومنها ما يمر على غالب أجزائها أو كلها، فيأخذ سرها، وهذا الماء عين من العيون الخارجة من الأرض الجائية من أرض الشام، فهناك جمعت تربته ﷺ في غور من الأرض مساحته ما قلناه فيما سبق، وبلت تربته بهذا الماء؛ لأنه يستمد من المياه التي في أطراف الأرض، فتراه ماشيًا في تخوم الأرض خارقًا لأجزائها حتى ينتهي إلى تلك العين، ويأتي إليها من جميع النواحي، والعين باقية إلى الآن، وفيها من الموافقة للذات ما لا يوجد في غيرها من المياه التي على ظهر الأرض.

قال: فبقي ذلك التراب في الماء المدة السابقة؛ يعني: عشرين يومًا، وعند ذلك ابتدأ التصوير في آدم ﷺ وهو في جوف ذلك الطين، فبقي التصوير يدخله شيئًا فشيئًا إلى أن كمل ذلك في أربعين يومًا وهو في جوف الطين لا يرى منه شيء، وبعد ذلك أراد الله تعالى نقله من الطينة إلى جسم بني آدم، فظهر في أصابعه شبه القرحة حتى ملأتها ثم انفجرت وجمدت مادتها على الصبع، فرجع أبيض مثل الجمار، ثم سرى ذلك فيه عضوًا عضوًا وجزءًا جزءًا إلى أن صار كله مثل الجمار في الصفاء والرطوبة، أو مثل عجين ناصع أخذ دقيقه من خالص القمح، فصور من ذلك صورة آدم، ثم دخلته الدموية شيئًا فشيئًا، وانفلق عنه الطين وحصل فيه يبس، فصارت الريح تهب عليه، واليبس يظهر في أجزائه، فتكونت العظام بإذن الله، فلما تكاملت خلقته في عشرين يومًا وأراد الله نفخ الروح فيه نقله إلى الجنة ورفعه إليها.

فقلت: أي جنة هي؟

فقال ﷺ: الجنة الأولى، فلما حل فيها دخلت فيه الروح، فدخل فيه العقل والعلم، وحصلت له المعرفة بالله ﷻ فأراد أن يقوم فارتعد فسقط، ثم أراد أن يقوم فحصل له مثل ذلك أيضًا، مثل ما يحصل للصبيان من السقوط إذا أرادوا القيام، ثم إن الله تعالى أمده بالمشاهدة التي سبق ذكرها في الأسماء وهو واقف على رجل معتمد بركبته الأخرى على الأرض، فلما حصلت تلك المشاهدة.

قال: الله الله الله، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فأمده الله تعالى بالقوة، فاستقل قائمًا وجعل يمشي في الجنة ويروح حيث شاء، ثم ألقى الله عليه وجعًا في ضلعه، فحصل فيه مثل الدمل العظيم حتى خرج منه قدر رأس إنسان، فبقي فيه إلى أن انفجر عن مثل القليب

بالتصغير، فسقط القليب إلى الأرض، فنظر إليه آدم فإذا هو مصور بصورته فتركه، وجعلت روائح الجنة ونفحاتها تمر على ذلك القليب، فنفعه ذلك في سرعة الكبر، فجعل آدم يتعاهده فيجده يسرع في الكبر إسراعًا عظيمًا، فجعل يأنس إليه ويجلس معه، فألقى الله العقل في ذلك القليب فجعل يتحدث مع آدم.

فلما مر عليهما شهران في الجنة، ألقى الله تعالى الشهوة فيهما، فوقع آدم على حواء التي كانت ذلك القليب السابق، فحملت فوضعت حملها في المدة السابقة.

قال ﷺ: إنما رفع الله آدم إلى الجنة لتسقى ذاته من أنوارها حتى لا تنسى ذريته العهد الذي أخذه عليهم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] وتعظيمًا لسيدنا محمد ﷺ يعلم هذا أرباب البصائر.

فقلت: فالشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها ما هي؟

فقال ﷺ: هي شجرة التين من غير شك.

قال: وإنما نهاه عن الأكل منها لأن تلك الشجرة وأنواعا غيرها من الأشجار التي في الجنة تسهل بطن كل من أكل منها، فنهاه الله تعالى عن الأكل منها لئلا يسهل بطنه فلا يكون من أهل الجنة.

فقلت: فأطعمة الجنة وثمارها والنعم التي فيها، وإن كانت متجسدة فإنها أنوار لا ثقل لها كما جاءت به الأحاديث الكثيرة، وما لا ثقل له فلا يسهل به البطن.

فقال ﷺ: صحيح ما قلتم، ولكن ذوات أهل الجنة إذا دخلوها يوم القيامة أساسها صحيح، ولها من القوة ما لا يخفى، فليست هي كذات آدم حين دخل الجنة. فإذا نزلت النعم في ذوات أهل الجنة أطاقتها للقوة التي فيها، ولأن الذوات حينئذ أنوار مثل النعم، فرجعت الأنوار إلى أصلها، بخلاف ذات آدم حين دخل الجنة، فإنها ترابية ضعيفة، فلذا لم تطق الأكل من تلك الشجرة.

فقلت: هذا يقتضي أن ذات آدم في ذلك الوقت لا تطيق الأكل من تلك الشجرة ولا من غيرها.

فقال ﷺ: الأشجار التي في الجنة والنعم التي فيها على قسمين:

قسم وهو الغالب الكثير، إنما هو أنوار لا تشاكل شيئًا من نعم دار الدنيا، فهي أنوار لا ثقل لها أصلاً. وهذا القسم تطيقه ذات آدم، وهو الذي أمره الله أن يأكل منه.

وقسم وهو القليل، نعم تشاكل النعم التي في دار الدنيا في النوع والصفة، ولها ثقل. وهذا النوع لا تطيقه ذات آدم حين كان في الجنة، فنهاه الله تعالى عن الأكل منه لئلا يخرج من الجنة.

قال: وإنما انقسم نعيم أهل الجنة إلى هذين القسمين، لأن الله تعالى علم في سابق علمه أن لأهل الجنة حالتين:

الحالة الأولى: وهي الحالة الغالبة عليهم، ألا تخطر الدنيا الفانية في عقولهم ولا تخطر على بالهم، فتغيب هي وأمورها وجميع ما فيها من النعم عن عقولهم، وفي هذه الحالة يكرمهم الله تعالى بالقسم الأول، فيأكلون منه ويشربون ويتنعمون.

والحالة الثانية: وهي النادرة، أن تخطر الدنيا الفانية في عقولهم، ويستحضرون الأحوال التي كانوا عليها، فيتمنونها فيجدونها حاضرة هي القسم الثاني.

والحالة الأولى أكمل من جهة الفكر، فإنهم فيها بمنزلة من هو مع ربه ﷻ فلا يشعر بغيره، وأكمل من جهة النعم لأنها هي النعم التي كانت لهم بحسب الأصالة وبحسب ما اقتضاه حال أهل الجنة، وأكمل من جهة الدوام لأنها هي الغالبة عليهم، والحالة الثانية دونها في جميع ذلك. وأما من جهة الفكرة، فإنهم بمنزلة الغائبين عن المشاهدة، فشعروا بأنفسهم، ومن شعورهم بأنفسهم خرجوا إلى التفكر في أمور الدنيا حتى تمنوا نعيمها.

قال ﷺ: فلما علم الله أن لأهل الجنة التفاتًا إلى دار الدنيا في بعض الأحوال، خلق في الجنة نعمًا على طبع الجنة لا ثقل لها أصلاً، وخلق فيها لأجل ذلك الالتفات نعمًا على غير طبع الجنة لها ثقل وشبه بنعم أهل الدنيا، ولكنهم لما كانت ذواتهم في الجنة أنوارًا قوية لم يظهر فيها ثقل، وذات آدم لما ضعفت عن ذواتهم حين دخل الجنة ظهر الثقل الذي فيها في ذاته. فإذًا الثقل الذي في القسم الثاني لا يظهر إلا في الذات الضعيفة، وليست إلا ذات آدم يومئذٍ.

قال ﷺ: وكان عقل آدم عليه السلام قبل أن يأكل من الشجرة متعلقا بربه، غافلا عن

مصالح نفسه، ولما أكل منها انعكس الأمر، فتعلق عقله بمصالح ذاته. وسر ذلك هو أنه قبل أن يأكل من الشجرة كان أكله تنعمًا وتفكهًا، لا يجوع معه ولا يظمأ، فكفي شأن الجوع وتدبير المعاش، فكان العقل متعلقًا بربه، فلما أكل من الشجرة وحصل له الإسهال والجوع بعده، التفت العقل إلى الذات وقال: إذا فرغت البطن فأي شيء تعمر به، فجعل يفكر في تدبير معاشها، فلذلك أنزله الله تعالى إلى دار الكدِّ والشقاء.

ولّما علم الله ﷻ منه ذلك، وأنه سينزل إلى الأرض رتَّب له ﷻ أسباب المعاش، ونصب له سببها قبل أن يهبط من الجنة. وذلك أنه لما صوره من التربة السابقة، وقد سبق أنها كثيرة، صور له من تلك التربة كل حيوان يحتاج إليه في أمر معاشه، وكان أصل خلقتها من التربة المذكورة، فإن الله تعالى لما رفع آدم ظهرت الحيوانات كلها في ذلك الطين على صورة الدود، وخلق من كل نوع عشرة، خمسة من الذكور وخمسة من الإناث.

قال ﷺ: فالسبع والنمر والفهد حتى عد خمسة، كلها نوع واحد.

ثم أرسل الله بعد رفعه مطرًا عظيمًا ما سمع بمثله، فجاءت السيول من كل مكان، وجاءت معها بالأوحال الكثيرة، فزادت على ذلك الطين فحصل نفع عظيم ومدد قوي منها، الحيوانات بمنزلة من اتسع عيشه، وجاءه الخصب، وكثرت عليه الخيرات، فلما نزل آدم بعد تسعة أشهر وجد الحيوانات تمشي على وجه الأرض وهي تكبر شيئًا فشيئًا، فأنس بها، وأعلمه الله أنها سبب معاشه ومعاش ذريته إلى يوم القيامة.

قال: وأنبت الله في الموضع الذي كان فيه رأس آدم من الطين النخيل، والأعناب، والتين، والزيتون، فلما نزل آدم بعد تسعة أشهر، وفرغ بطنه طلب ما يأكل، فجعل الله الطعم في تلك الأشجار والنخيل، فكان أول رزق رزقه الله من أسباب المعاش، وحملت تلك الأشجار في هذه المدة القريبة بإذن الله.

فقلت: فحديث «**أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ طِينِ آدَمَ**»[1] صحيح أم لا؟

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١/ ٣٥٣ ، رقم ٤٥٥)، والرامهرمزى فى أمثال الحديث (١/ ٧٣، رقم ٣٥). والديلمى (١/ ٦٨، رقم ١٩٨). وقال الهيثمى (٥/ ٨٩): فيه مسرور بن سعيد التميمى، وهو ضعيف. وابن أبي حاتم كما فى تفسير ابن كثير (٣/ ١١٨) قال ابن كثير: هذا حديث منكر جدًا. والعقيلى مختصرًا (٤/ ٢٥٦)، وقال العقيلى: هو غير محفوظ لا يعرف إلا بمسرور. وابن عدى (٦/ ٤٣١)، وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٣)، وابن عساكر (٧/ ٣٨٢)، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق أبي نعيم (١/ ٢٩٠، رقم ٣٨٥).

فقال ﷺ: ليس هو من كلام النبي ﷺ.

*قلت: وكذا قال الحفاظ للحديث مثل ابن حجر، والزركشي، والسيوطي، وغيرهم.

فقلت: وهل خلق الله له من الأشجار غير الأربعة السابقة؟

فقال ﷺ: كل شجرة مذكورة في القرآن باسمه كالنخيل والأعناب والتين والزيتون والرمان، وكل ما ذكر في القرآن باسمه، فقد خلقه الله من تلك التربة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إنه ليس في مخلوقات الله كلها أحسن خلقة من بني آدم، فذواتهم هي أحسن ذوات المخلوقات وأفضلها وأرفعها وأقومها، والعاقل إذا تأمل في التفاصيل التي في ذات الآدمي، والتركيب الذي بين أجزائها، والترتيب الذي بين مفاصلها وعروقها، والمحاسن التي اشتمل صنع الله عليها في ظاهرها وباطنها، حار وعلم عظمة خالقها ومصورها ﷻ.

فقلت: فبم فضلت على ذات الملك؟

فقال ﷺ: لأنه اجتمع فيه مخلوقات لم تجتمع في ذات الملك، وكل ما في ذات الملك هو في ذات الآدمي وزيادة، فإن ذات الملك من نور وركب في ذلك النور عقل، هذا ما في ذات الملك لا غير، وذات الآدمي فيها ذلك النور، وفيها العقل، وفيها الروح، وفيها ألوان من تراب ونار وريح وماء، في كل واحد منها سر من الأسرار قدرة الله ﷻ فاجتماعها في ذات واحدة تقوي الأسرار في تلك الذات.

وبالجملة: فذات الآدمي فيها عدة مخلوقات، وذات غيره ليست كذلك، فكانت ذات الآدمي أقوى الذوات، ولهذا كانت تطيق من الأسرار ما لا تطيقه ذات الملك، ولهذا صور نبينا ومولانا محمد ﷺ عليها، فإنه ﷺ أقوى المخلوقات في تحمل الأسرار الربانية، فلو كانت هناك ذات أقوى من ذات الآدمي لصور سيد الوجود ﷺ عليها.

* **قلت:** وما ذكره ﷺ من كون ذات الآدمي أقوى الذوات وأحسنها، أشار إليه الإمام القشيري في التحبير في شرح أسماء الله الحسنى فانظره، فإنه كلام شيخنا ﷺ أبسط منه، وإنما كتب منه بعض البعض والكثير بقي في لسانه ﷺ.

ثم قال ﷺ: ومع كون ذات الآدمي أحسن الذوات، فقد جرى في سابق علمه ـ جل وعلا ـ أن جعل طائفة منها إلى الجنة وطائفة إلى النار، وذلك بسبب حجب بصائرهم عنه تعالى، فإنه أولا جعل في تلك الذات الروح وسرها الذي هو العقل ومعرفة الله تعالى ونور الإيمان به مع المشاهدة، ورفع الحجا ـ جل وعلا ـ بينه وبينها، فحصلت لها المعرفة بخالقها على الوجه الأكمل، فلما أراد الله تعالى إنفاذ الوعيد [وضع][1] الحجاب على تلك الذات، فزالت المشاهدة التي كانت لها ووقعت لها القطيعة، ويا ليتها حيث وقعت لها القطيعة لم [تتعلق][2] بشيء، فإن ذلك خير لها مما وقعت فيه، وذلك أنها نظرت إلى خيط نور العقل الذي بقي فيها [فتعلقت][3] به وجعلته عمدتها وسندها في كل شيء، فزادها ذلك قطيعة؛ لأنها نظرت إليه على أنه منها وناشئ منها وراجع في جميع الأمور إليها، فزادها استقلالًا بنفسها وانقطاعًا عن الله ﷻ ولو نظرت إليه على أنه من الله ﷻ وأنه تعالى هو محركه في كل لحظة، لكان في ذلك رجوعها إلى الله ﷻ وحصلت المشاهدة التي زالت.

وبالجملة فحاصل أمرها أنها انقطعت عن قديم وتعلقت في نظرها بحادث، ولو لم تتعلق بشيء كان خيرًا لها.

قال ﷺ: فلما تعلقت بعقلها في تدبيرها، واستندت إليه في أمر معاشها ومعاشرتها للخلق، وعلم الله تعالى أنها لا بد أن تنحرف عن الطريق، أرسل إليها الرسل ليردوها إلى طريق معرفته تعالى، فظهر فيما جرى في سابق الأزل، فأجابت طائفة، وكذبت طائفة، وكان في إجابة الأولى بعض الرجوع عن اتباع العقل، وفي تكذيب الثانية غاية التعلق بالعقل وتمام اتباعه.

فقلت: وما هو الحجاب الذي وضع حتى زالت المشاهدة؟ أهو الدم الذي هو سبب في الغفلة أم غيره؟

فقال ﷺ: غيره، وهو ظلام من ظلام جهنم كسيت به الذات فحجبها عن الحق ومعرفته.

---

(١) في (ب) ومنع.
(٢) في (ب) تنطق.
(٣) في (ب) فنطقت.

فقلت: فما النسبة بينه وبين الدم؟

فقال ﷺ: لا نسبة بينهما، إلا أن الدم يزيد في البعد عن الله تعالى، فهو يزيد في الحجاب.

ثم ضرب مثلاً لكون الدم مبعدًا برجل له ولد صغير عزيز عليه مثل عينيه في المحبة والمعزة، ثم أصابه الضر المعروف بحب البيش حتى كساه في وجهه وجميع ذاته، فإن والده يحن عليه ويهتم له، ويكبر عليه ما أصاب ولده، ولا يفر منه، بل يغلب حب ولده حتى لا يستقبح ذلك المرض، فتراه يقبل ولده ويشمه مع ذلك المرض، وإنما فعل ذلك لأجل الاتصال الذي بينه وبين الولد. فلو فرضنا الولد بعيدًا منه، أجنبيًا عنه، لا نسبة بينه وبينه في شيء من الأشياء، نفر منه إلى الغاية، وهرب منه إلى النهاية، وتحاماه بالكلية.

قال: فذلك مثل الدم في المؤمن والكافر.

ثم قال ﷺ في الطائفة التي أجابت الرسل إنها انقسمت إلى فرقتين: فرقة أجابوا ووقفوا مع الإيمان بالغيب من غير فتح عليهم، وهم عامة المؤمنين؛ وفرقة أجابوا وترقوا إلى الفتح. فمنهم من استمر مفتوحًا عليه، ومنهم من وقف به الفتح. والذين استمر بهم الفتح في زيادة دائماً، والذين وقف بهم الفتح في نقصان دائم.

ثم ضرب مثلاً لوقوف الفتح ونقصانه واستمراره ودوامه، **فقال** ﷺ: إنه بمنزلة رجلين فقيرين، خرجا يطلبان غنيا، فلما رفعا إليه أيديهما وطلب منه كل واحد درهمًا، فأخذ واحد منهما درهمًا واستغنى به، والآخر لما أخذه استزاده فزاده موزونة، فاستزاده فزاده عشر موزونات، فاستزاده فزاده دينارًا ذهبًا. فإذا فرضنا هذا الغني كريما وخزائنه لا تنفد ولا تغيض، ثم فرضنا هذا السائل مستزيدًا دائماً، فإن العطية لا تقف به أبدًا. وهكذا حال أولياء الله تعالى الذين استمر بهم الفتح، فإنهم في زيادة دائماً في كل لحظة أبد الآبدين ودهر الداهرين، حتى في حال نزول الموت بهم فإنهم ﷺ لا يحسون به؛ لأن عقولهم وأرواحهم وذواتهم منقطعة عن غيره تعالى، ومن جملة الغير الموت فهم لا يشعرون به أصلاً.

* **قلت**: وهذا قريب من الكلام السابق؛ لأن من قبض في الباقي ﷻ لا يموت الموتة المعروفة، وأن ذلك هو دواء الموت، فراجعه فيما سبق، والله أعلم.